

المحاضرة الثامنة: مصطلح الغرض

من المصطلحات التي نجد بينها تداخلا في المفهومات في تراثنا النقدي؛ الشعر والقصيدة والغرض، وسبب هذا التداخل هو الارتباط الوثيق بينها، ذلك أننا لا نجد الغرض بمعزل عن القصيدة، كما أن الشعر تجسده القصيدة التي تتكون من مجموعة من الأبيات، والنقاد «كثيرا ما يتحدثون عن واحد من هذه المصطلحات وكأنهم يتحدثون عن الآخر، بل إن النقد الأدبي كثيرا ما كان يتكلم عن الشعر من حيث هو تصور عام، ولا يحاول إلا في القليل أن يدرس طبيعة القصيدة الشعرية¹ ذلك لأن الاهتمام بالجزء (البيت) جعل النقد يهمل هذا الكل المتماusk (القصيدة).

كما أن النظرة إلى الشعر تكاد تكون محصورة في أغراضه، وهذا أيضا جزء من تكريسهم للنظرة الجزئية للشعر، فالقصيدة هي جملة أغراض، حتى عرفت القصيدة الجاهلية بأنها " تجري على سنة متناقلة، يعرض فيها الشاعر إلى التحدث عن بعض الأغراض التي كانت تتأثر بها حياته"².

مفهوم الغرض:

إذا كان الغرض في الشعر هو الهدف الذي قيل من أجله، وهو المتعارف عليه عادة باسم "موضوع النص" أي الفكرة الأساسية الكبرى التي اتخذها المبدع محتوى لرسالته، واستعمل الموسيقى واللفظ ومختلف الأساليب ليوصلها في أبهى صورة، وليبلغ بها ما يهدف إليه من غايات³، وإذا كان في أبسط معانيه هو الهدف، فإننا سنجد فيه مفارقات وتضاربات، إضافة إلى التداخل مع مفهوم القصيد، فالغرض لغة هو الهدف والمقصود، وفي الشعر هو ما يهدف ويقصد إليه الشاعر في قصيدته، وقد ترددت هذه اللفظة - لفظة الغرض - في كتب نقادنا كثيرا.

وفيما يخص التداخل بين مصطلحي " الغرض " و" القصيدة " فإن مرده حسب قول ابن خلدون عن الشاعر " بأنه يستطرد للخروج من فن إلى فن، ومن مقصود إلى مقصود"⁴

¹ - عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد العربي، دار الفكر العربي، 1992 ، ص 307.

² - إيليا حاوي: فن الشعر الخمرى وتطوره عند العرب، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1981 ، ص 27.

³ - محمد عبد العظيم: (في ماهية النص الشعري)، إطلالة أسلوبية من نافذة التراث النقدي، ط 1 ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، 1994 ص 137 :

⁴ - ابن خلدون: المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، 1982 ص 1098 :

السنة الأولى ماستر أدب قديم السداسي الأول.....مصطلحات الأدب العربي القديم.....د/ إبراهيم لقان
فالغرض فن مقصود ولغاً الغرض هو المقصود والمهدوف إليه، ولذلك يعتقد أن " القصائد معناها
الخروج من المرحلة التي تشمل فيها القصيدة غرضاً واحداً، إلى مرحلة أخرى تشمل فيها أغراضاً متعددة،
يقصد إليها الشاعر وينتقل من غرض إلى غرض"¹

ومن هذا يمكن الخلوص إلى أن اسم القصيدة ارتبط بتعدد الأغراض في النص الشعري، غير أن ذلك لا
يمنع أن يكون القصد مع أحادية الغرض أو ما يسميه حازم (القصيدة البسيطة)²

وإضافة إلى مصطلح "الغرض" الذي يعد الأكثر شيوعاً، و مصطلح "المقصود" الذي استعمله ابن
خلدون، نجد مصطلحات مرادفة، هي: "بيوت الشعر"، " أركان الشعر"، " فنون الشعر "ضروب أو أصناف
الشعر"، " معاني الشعر"، " اتجاهات الشعر"، " موضوع الشعر"، وكلها تستعمل بدلا من " أغراض
الشعر".

أما مصطلح " بيوت الشعر" فقد أورده ابن سلام في قوله: "وقد قالوا إن بيوت الشعر أربعة: فخر
ومديح ونسيب وهجاء"³ وهذا الاستعمال يذكرنا بقولهم: أمدح بيت، وأهجي بيت وأغزل بيت ... أي أنه
يأخذنا إلى مفهوم البيت الذي يعتبر بنية جزئية ضمن بنية كلية، ومعلوم أن نقدنا القديم كان متأثراً في
أغلبه بالنزعة الجزئية، فهو ينظر إلى الكل من خلال الجزء، من ذلك ما نجده عند عبد الكريم النهشلي،
حين يذكر أن الافتخار والمدح والهجاء والنسيب هي أركان الشعر، ثم يأتي بأربعة أبيات يرى أن جريراً
برز من خلالها على الناس في هذه الأركان الأربعة؛ فالأول في الفخر، والثاني في المدح، والثالث في
الهجاء، والرابع في النسيب، وهو لا يستعمل أفخر بيت وأمدح بيت ... قاله جرير، بل يرى أنه سبق
الناس إلى هذا الغرض أو ذاك بهذا البيت"⁴.

إن مصطلح " بيوت الشعر" يلاحظ فيه إشكال واضح فالغرض الشعري ليس بيتاً من الشعر وإنما
جملة أبيات، إذا قلنا عن واحد منها أنه بيت في المدح أو غيره من الأغراض، فإن ذلك بمضمونه، وليس
بكونه وحدة من وحدات النص الشعري ولا يمكن بحال من الأحوال أن نضفي هذا المصطلح على مفهوم

¹ - فخر الدين جودت: شكل القصيدة العربية في النقد العربي حتى ق 8. هـ، ط 1، دار الآداب، 1984، ص 26.

² - القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، ط 3، دار الغرب الإسلامي، بيروت،
لبنان، 1986، ص 303 :

³ - ابن سلام، طبقات الشعراء، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ت، ص 87

⁴ - عبد الكريم النهشلي: اختيار من كتاب الممتع في علم الشعر وعمله، تقديم وتحقيق الدكتور منجي الكعبي الدار العربية
لكتاب، ليبيا-تونس، د.ت، ص 476 :

السنة الأولى ماستر أدب قديم السداسي الأول.....مصطلحات الأدب العربي القديم.....د/ إبراهيم لقان
الغرض -الموضوع"¹، خاصة أن الغرض يتألف من مجموعة أبيات، نقول عن الواحد منها إنه في هذا
الغرض أو ذاك.

وبالنسبة لمصطلح " أركان الشعر " فقد أورده المرزباني في قوله أجمع العلماء بالشعر على أن «
الشعر وضع على أربعة أركان :مدح رافع، أو هجاء واضح، أو تشبيه مصيب، أو فخر سامق" وهذا
كله مجموع في قول الفرزدق والأخطل"²، وما يلاحظ على هذا القول هو خلطه بين الأغراض الشعرية،
والأدوات الفنية التشبيهية (ثم يسمي كل ذلك أركاننا وإذا كان الركن هو أحد الجوانب التي يستند إليها
الشيء ويقوم بها وجزء من أجزاء حقيقة الشيء"³، إذا كان الأمر كذلك، فإن هذه الأربعة التي ذكرها لا
يصح أن تسمى أركاننا لأن غياب بعضها أو كلها ليس هو ما يجعل النص شعرا أو غير شعر، بل
الشعر "أربعة أشياء لفظ ومعنى ووزن وقافية"⁴. فهذه الأربعة هي التي يصح أن تكون أركاننا للشعر،
لأنه بها يقوم وإلا فليس بشعر أصلا، وقد استعمل هذا المصطلح الأركان -بمعنى الأغراض في غير
موضع، من ذلك قولهم" :بني الشعر على أربعة أركان، وهي المدح والهجاء والنسيب والثناء"⁵.

وأما مصطلح " فنون الشعر " فإنه لا يتميز بالدقة العلمية في تحديد المدلول الذي يراد به
(الغرض) "إذ قد يراد بالفن اللون الأدبي مثل فن الشعر وفن النثر، فالشعر كله فن واحد يتفرع إلى
أغراض - بالنسبة للشعر العربي - غير أنهم يصطلحون أحيانا على الغرض بمصطلح الفن وللشعراء
فنون من الشعر كثيرة تجمعها في الأصل أصناف أربعة، وهي :المديح والهجاء والحكمة واللهو"⁶
فالفنون إذن تتفرع عن هذه الأصناف الأربعة، مما يعني أنهم يرون أن هناك أغراضا فرعية
يسمونها الفنون، وأغراض أصلية يسمونها الأصناف، والاستعمال ذاته عند عبد الكريم ، النهشلي، فأصناف
الشعر عنده أربعة، ويتفرع عن كل صنف من ذلك فنون "فيكون من المديح والمراثي والافتخار

¹ - نور الدين السد :الشعرية العربية) دراسة في التطور الفني للقصيدة العربية حتى العصر العباسي(، ديوان المطبوعات
الجامعية، 1995 ، ص408 :

² - المرزباني :الموشح، تحقيق محمد علي البجاوي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، دت، ص225 :

³ - المعجم الوسيط، ص 370-371.

⁴ - ابن منقذ :البدیع في نقد الشعر، ص.404

⁵ - ابن رشيق :العمدة، في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5 ، دار الجيل ، بيروت،
لبنان، 1981، ص120.

⁶ - ابن وهب :البرهان في وجوه البيان، ص 170

السنة الأولى ماستر أدب قديم السداسي الأول.....مصطلحات الأدب العربي القديم.....د/ إبراهيم لقان والشكر...¹. والأولى أن يكون الشعر واحدا من الفنون، ثم يتفرع إلى أغراض، وإذا كانت هذه الأغراض أساسية فستنشأ عنها أغراض فرعية.

فالخلط بين الأغراض والفنون الشعرية موجود مع أنه من الواضح أن الأغراض كلها تنفرع عن فن الشعر الذي يعرف في الغرب باسم "الشعر الغنائي" تمييزا له عن فن الشعر الملحمي، وفن الشعر الدرامي، وفن الشعر التعليمي "فشعرنا العربي القديم يعتبر كلّه فناً واحداً، وإن تنوعت أغراضه"². كما يستعملون للدلالة على الغرض "الضرب أو الصنف" وبهذا المعنى استعمله ابن سلام فقال عن جرير: إنه يحسن ضرباً من الشعر لا يحسنها الفرزدق"³. وعند ابن وهب "الهجاء أحد الأصناف الشعر الأربعة"⁴.

وسواء استعملنا "الصنف" أو "الضرب" فإن كلا منهما ليس دقيقاً في الدلالة على الغرض، إذ التصنيف يكون للتمييز بين الأشياء، فهو عام، وليس خاصاً بالشعر، وهناك من يرى أن الضرب يندرج ضمن الغرض، وليس غرضاً مستقلاً، ويضرب مثلاً لذلك قصيدة البحترى المشهورة في وصف إيوان كسرى، حيث أن الوصف فيها جزء من المدح.⁵

كما استعمل ابن قتيبة مصطلح الضرب للدلالة على الغرض في قوله: "تدبرت أضرب الشعر فوجدتها أربعة أضرب..."⁶

وللدلالة على الغرض أيضاً يستعملون مصطلح "المعنى"، وقد استعمله عدد من النقاد فابن منقذ مثلاً يقول "المعاني التي يقصدها الشعراء هي المدح والهجاء والنسيب والمراثي والأوصاف والتشبيه"⁷. و الأمدي يذكر قائمة طويلة من المعاني حين يوازن بين أبي تمام والبحترى من خلالها، فيذكر معنى ذكر الفراق والوداع والترحل عن الديار والبكاء على الطاعنين، وذكر ما جاء عنهما من الابتداءات في هذه المعاني وبوبها أبواباً"⁸.

¹ - ابن رشيق: العمدة، 1، 120/

² - محمد مندور: الأدب و فنونه، ص74.

³ - طبقات ابن سلام، ص 86، : الموشح، ص15 :

⁴ - ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، ص 170

⁵ - ابن الشيخ: الشعرية العربية، ص375 :

⁶ - ابن قتيبة، الشعر والشعراء.

⁷ - ابن منقذ: البديع في نقد الشعر، ص405 :

⁸ - توفيق الزبيدي: مفهوم الأدبية ص27.

السنة الأولى ماستر أدب قديم السداسي الأول.....مصطلحات الأدب العربي القديم.....د/ إبراهيم لقان
والمعاصرون من نقادنا يستعملون مصطلحات مختلفة للدلالة على الغرض، فمصطفى هدارة يستعمل
مصطلح "اتجاهات" الذي يبدو أنه لا يخصه للأغراض وحسب.

أما نور الدين السد فإنه يختار مصطلح "موضوع" بدلا من المصطلحات الأخرى بما فيها الغرض
وذلك لشعوره بعدم دقتها كمصطلحات نقدية قادرة على "تحديد الظاهرة الفنية بموضوعية بعيدا عن
الارتجال والتسطح، ومن هنا- يضيف السد: نرى أن استخدام مصطلح موضوعات القصيدة العربية أكثر
دقة ومواءمة في التعبير عما نهدف إليه"¹.

أما وهب رومية فإنه ينظر إلى الأغراض الشعرية على أنها مجرد "رموز" ويرفض مصطلح "الغرض"
إذ برأيه أن "أغراض الشعر مفهوم بئس، وضرير، بل لعله أبعد مفهومات نقدنا القديم عن الصواب،
وأشدها إيغالا في المغالطة"²

¹ - نور الدين السد: الشعرية العربية، ص 409.

² - أحمد وهب رومية: شعرنا القديم والنقد الجديد، عالم المعرفة، 1996، ص 141.